طه حسين الرائد

للدكتور إبراهيم مدكور

عشت زمناً مع طه حسين فى معركة الشعر الجاهلى ، وكنت لاأزال طالباً. ونعد بحق أكبر معركة فكرية وثقافية فى العقد الثالث من القرن العشرين. وقدر لى أن أسافر فى بعثة إلى فرنسا فى أخريات هذا العقد . وبعدت نوعاً عن ذيول هذه المعركة . وفى عام ١٩٣٢ جمع مؤتمر المستشرقين بينى وبين طه حسين بهولندة ، لأول مرة :

وشاءت مصر أن تعرض فى هذا المؤتمر حروف التاج ، التى لم تقدر لها حياة طويلة . وما أن عدت من بعثتى عام ١٩٣٥ حتى دعيت للتدريس بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، واتصلت بطه حسين عن قرب ، وتوثقت صلاتنا عاماً بعد عام . عرفته أستاذاً وعميداً ، واتخذت منه زميلاً وصديقاً . وشاء الله أن تمتد هذه الزمالة إلى النهاية : فقد سبقنى إلى مجمع الخالدين ، وانضم إلى عضويته عام ١٩٤٠ . وفى عام ١٩٤٦ جاء دورى ، ولحقت به هناك ، وعشنا طوال سبعة وعشرون عاماً فى تفاهم وتعاون تام .

* * *

ومجال القول فى طه حسين ذو سعة ، وقد سبق لى أن عرضت لطه حسين المكافح ، وطه حسين الثائر ، ولطه حسين المجمعى . وأود أن أقف اليوم وقفة قصيرة أمام طه حسين الرائد ، وله ريادات كثيرة أكتفى بأن أشير إلى ثلاث منها فى ميدان الصحافة ، والأدب ، والحياة الجامعية . وقد أولع طه حسين بالصحافة فى صباه ، وشغل بها ولما يبلغ العشرين ، وتتلمذ فيها على رائدين كبيرين هما عبد العزيز جاويش ، ولطفى السيد ، فجمع بين التطرف والاعتدال :

وشاء عبد العزيز جاويش فى أن يفسح له المجال فى « مجلة الهداية » التى رأى أخيراً أن يكل إليه أمر إدارتها ، وهذه ثقة يعتد بها . ولكن هذا الرائد اضطر إلى الهجرة من مصر على غير انتظار .

فلم يكن لطه حسين بدٌ من أن يلجأ إلى رائده الثانى ، وهو لطفى السيد الذى كان معجباً بقوة حجته ووضوح جدله ، وسبق أن شفع له عند شيخ الأزهر الذى كان يريد أن يحرمه من متابعة دراسته. وفى مدرسة « الجريدة » استكمل طه حسين إعداده الصحفى ، وعمل فيها مع زملاء آخرين كانوا من كبار الصحفيين المعاصرين ، أمثال : محمد هيكل ، ومحمود عزمى ، وأحمد حسن الزيات . ولهذه المدرسة شأن ملحوظ فى تطوير الأداء الصحفى ، فاستكملت ما بدأ به رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده من محاربة المحسنات اللفظية من سجع ، ومحاولة التخلص من البيان والبديع . وآثرت الأسلوب السهل السائغ الذى يتابعه القارىء فى يسر ودون توقف . ولطه حسين فى هذا قدم صدق ومنزلة رفيعة ، فقد استولى على قرائه ومستمعيه بأسلوبه السهل وعباراته العذبة ، وما كان أشبهه بعبد الحميد الكاتب ، أو ابن المقفع ، أو الجاحظ من كتاب الصدر الأول .

بيد أن ريادة طه حسين الصحفية الحقة إنما بدأت بعد عودته من بعثته ، فأسهم فى ميدان الصحافة إسهاماً ملحوظاً فى عقود ثلاثة متلاحقة من هذا القرن ، من العقد الثالث إلى العقد الخامس ، ولم يغفلها فى العقدين التاليين ، وقد ملأ الأعين والآذان بمقالاته ومحاضراته حين استوقفته قضية الشعر الجاهلى طوال عشر سنين أو يزيد . شارك زميله القديم هيكل فى إدارة شئون « جريدة السياسة » ، وناب عنه أحياناً فى رياسة تحريرها .

وسلك « بالسياسة الأسبوعية » مسالكاً ثقافياً فسيحاً ، فتح أبواباً شتى للبحث والدرس ، والحوار والمناقشة وكم كان قراؤه يرقبون فى شوق كل أسبوع « حديث الأربعاء » .

* * *

وطه حسين أديب رائد فى منهجه وبحثه ، فى درسه ومحاضراته ، فلم يقنع فى بحوثه الأدبية بما درج عليه أصحاب التراجم فى التعريف بالكتاب والشعراء من الوقوف عند حياتهم الشخصية وذكر بعض مؤلفاتهم . وحرص الأستاذ الأديب الكبير على أن يربط هؤلاء الكتاب والشعراء ببيئتهم والظروف المحيطة بهم ، وهذا ربط طبيعى ومنطقى ، لأن الحياة الأدبية فى مجتمع ما وثيقة الصلة بالبيئة الطبيعية ، والحياة السياسية والفكرية فى هذا المجتمع بوجه عام . وقد توسع فى هذا الربط والتحليل توسعاً كبيراً . ولاحظ بحق أن بعض أصحاب التراجم قد لا يتحرون الدقة فيما ينقلون ، وكثيراً ما يأخذ لاحقهم عن سابقهم فى غير ما تحقيق ولا تدقيق ، وأخذ نفسه بمبدأ الشك الديكارتى الذى كان

معجباً به ، وحاول ما وسعه أن يطبقه . وكان يرى أن الآراء والأحكام قابلة للأخذ والرد ، والتحليل والمناقشة إلى أن يقوم الدليل على صحتها . وكم فتح شكه هذا أعيناً كانت مغمرة ، وأذهاناً كانت مغلقة .

ومن الكسل الذهني والفكرى أن يقال : ما ترك الأول للآخر شيئاً ، بل لقد ترك له الشيء الكثير ، وفى وسعنا أن نبحث كما بحث الأقدمون ، وأن نضيف ما لم يضيفوه ، وهذا فتح جديد قال به طه حسين الرائد . وكان من آثاره قضية الشعر الجاهلى التى شغلت الأذهان عدة سنين ، وقيل فيها ما قيل ، وكتب ما كتب . ولسنا بصدد هذه القضية اليوم ، وكل ما يعنينا أن ننوه بالمنهج العلمى الذى دعا إليه طه حسين وكان له أثره فى الدراسات الأدبية التالية ، بل فى البحث العلمى بوجه عام .

وطه حسين رائد فى درسه ومحاضراته ، فقد حرص على أن يسهم معه تلاميذه فى درسة وبحثه ، ووجههم نحو قضايا ومشاكل دعاهم إلى أن يعالجوها ، وحاسبهم على جهودهم فى حزم وجد . واتخذ من رسائل الماجستير والدكتوراه وسيلة لتطبيق المنهج العلمى الدقيق : إن فى التعريف بالأشخاص والمدارس ، أو فى شرح الآراء والمذاهب أو فى تحقيق النصوص . وكون بذلك جيلا من أساتذة المستقبل ، أكتفى بأن أشير إلى أربعة منهم وهم : الدكتورة سهير القلماوى ، والدكتورة عائشة بنت الشاطىء ، والدكتور شوقى ضيف ، والدكتور طه الحاجرى .

أما محاضراته ففيها هى الأخرى ريادة جديدة ، فلم يقف بها عند الحرم الجامعى ، بل خرج بها إلى قاعة المحاضرات العامة ، فى الجامعة الأمريكية ، أو فى الجمعية الجغرافية .

وأقبل عليها جمهور المثقفين من الجامعيين وغيرهم ، وفتح بابا فسيحاً للتعليق والملاحظة ، أو للنقد والمناقشة . وأحدثت نشاطاً فكرياً وثقافياً ما أحوجنا أن نستعيده .

* * *

وطه حسين أخيراً رائد جامعى ، فضرب مثلا فريداً لطالب أزهرى فاقد البصر لم يقنع بصحن الأزهر ، ولا بشيوخه وأعمدته ، بل جاوز هذا كله إلى أول نواة لحياة جامعية حديثة . فالتحق بالجامعة المصرية القديمة ، وأقبل على دروسها ومحاضراتها إقبالا شديداً ، وتتلمذ لأساتذة آخرين غير شيوخه الأزهريين ، نذكر من بينهم أحمد زكى (باشا) ، وأحمد كمال (باشا) ، وإسماعيل رأفت (بك) ؛ ومحمد الخضرى ، ومحمد المهدى من المصريين ، وجويدى ، وليتمان ، وسانتلانا من الأوربيين ، وكانت تربطه بالأخير

خاصة علاقة وثيقة ، وكثيراً ما صحبه فى متابعة درس الشيخ البشرى فى التفسير . وأقبل طه حسين على الدرس الجامعى إقبالا شديداً فى شوق ورغبة . وكان محل تقدير من أساتذته ، لتفتح ذهنه وقوة عارضته ، وإن ضاق بذلك أستاذه محمد المهدى . ودفعه البحث الجامعى إلى تعلم اللغة الفرنسية ، وإن لم يجودها إلا بعد سفره إلى أوربا . وانتهى به المطاف فى الجامعة المصرية القديمة إلى تقديم رسالة للدكتوراه حول « أبى العلاء المعرى » وحصل عليها بتقدير رفيع . وما إن نشرت هذه الرسالة حتى اتهم صاحبها بالإلحاد والزندقة ، وطاب إلى الجمعية التشريعية أن تحرمه من حقوقه الجامعية ، ولم ينقذه إلا سعد زغلول ، الذى كان رئيساً لهذه الجمعية حين ذلك .

وقدر له أن ينعم بحياة جامعية أخرى خارج مصر ، فأوفد فى بعثة إلى فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى وقضى هناك نحو خمس سنوات ، أمضى منها عاما واحد فى مونبلييه والباقى فى باريس ، وتتلمذ لكبار أساتذة الاجتماع والتاريخ فى السوربون ، أمثال : دريكام وليفى بريل ، وسينيوس . وأولع بالحضارة اليونانية الرومانية . مما دفعه إلى تعلم اليونانية واللاتينية وتمكن من الأخيرة تمكنا لا بأس به ، وتزود بزاد وفير من الأدب الفرنسى وحصل على الليسانس فى الآداب ، ثم توجهت جهوده فى السوربون ببحث عن «ابن خلدون» حصل به على الدكتوراه من جامعة باريس إلى جانب الدكتوراه السابقة التى حصل عليها فى الجامعة المصرية القديمة .

وفى عام ١٩١٩ عاد إلى وطنه ، وشغل بالصحافة زمنا . ثم أنشئت جامعة « فؤاد الأول » وضمت إليها الجامعة المصرية القديمة ، وكان لابد أن يفسح المجال لطه حسين فى الجامعة الجديدة ، لأنه وثيق الصلة بسابقتها ، وفى الجامعة الناشئة بدأت ريادته الجامعية الحقة التى حاول أن يضع فيها تقاليد سليمة ، وأخصها أولا إيمانه بأن العلم لا وطن له ، وعلى الجامعة أن تستعين بمن تدعو إليه الجامعة من أساتذة الغرب وعلمائه ، وتوسعت كلية الآداب فى ذلك توسعا كبيرا . وأصبحت شبه كلية عالمية يلتقى فيها الأساتذة الفرنسيون والباجيكيون والأساتذة الإنجليز والألمان إلى جانب المصريين . وسعى طه حسين جاهدا أيضا إلى أن يوفد أكبر عدد ممكن من خريجى كليته إلى المعاهد الأوربية الكبرى ، وأعد بذلك أساتذة المستقبل من المصريين .

وعنى ثانيا بالدراسات الكلاسيكية ، فأنشأ قسما مستقلا للغات القديمة ، وأصبح لليونانية واللاتينية مكان فى كلية آداب عربية . ولم يغفل اللغات الشرقية القديمة ، وإن عدها فرعا من قسم اللغة العربية .

وآمن أخيرا إيمانا جازما باستقلال الجامعة ، وضحى فى سبيله ما ضحى

وكان يرى أن البحث الجامعى لا يمكن أن ينمو ويزدهر إلا فى جو الحرية والاستقلال وليس لوزير أن يفرض عليه رأيا ، أو أن يرسم له اتجاها ، ومن مستلزمات هذا الاستقلال أن توفر للجامعة الاعتمادات المالية اللازمة ، التى تمكنها من أداء رسالتها وأن تحمى هيئة التدريس من أى تدخل أو عدوان .

هذا هو طه حسين الرائد ، وقد تحقق كثير من أهدافه ، وقدر لهذه الأهداف أن تحيا وتستقر ، ولكن الزمن أبى إلا أن يعدو عليها ، وفعلت السياسة فعلتها فى قدر كبير منها .

ولعل فى إثارتها ما يوجه النظر إليها ويدعونا إلى أن نستمسك بها مرة أخرى وهذا خير إحياء لذكرى طه حسين .

ابراهيم مدكور